

أصداء الثورة والمقاومة في المخيال الشعبي التواتي عند احتلال الصحراء

Echoes of Revolution and Resistance in the Popular Imagination of Touati When the Desert Was Occupied

عبد الله كروم

جامعة أحمد درايعية- أدرار (الجزائر)، kerroum197401@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/04/27 تاريخ القبول: 2023/05/31 تاريخ النشر: 2023/06/16

ملخص:

يهدف البحث إلى رصد مظاهر التعبير الثوري الذي واكب الكفاح ضد المستعمر، وذلك من خلال ما تلفظ به الشعراء، أو رددته الناس من أمثال سائرة تعكس الرفض والتمرد وعدم قبول الاحتلال، وقد عبّر أهل الصحراء عن ذلك شعرا ونثرا، فصيحا وملحونا، فعلا وقولا، عكس ما في المخيال الشعبي من روح المقاومة والثورة.

يعالج هذا الموضوع حضور أدب المقاومة في منطقة توات إبان الاحتلال الفرنسي للصحراء، حيث رافقت الكلمة الرصاص لتعبّر عن الرفض والمقاومة للمحتل رغم الفوارق الشاسعة بين الطرفين، وتمثل أدب المقاومة في علامات تاريخية، وقصائد شعرية، وأمثال شعبية، فكيف قاوم التواتيون الاستعمار الفرنسي أدبيا وفنيا وجماليًا؟
كلمات مفتاحية: أدب المقاومة؛ منطقة توات؛ الصحراء؛ الثقافة الشعبية؛ الشعر الملتزم.

Abstract:

The research aims to monitor the manifestations of the revolutionary expression that accompanied the struggle against the colonialists, through what the poets uttered, or the people repeated, such as other proverbs that reflect rejection, rebellion, and non-acceptance of the occupation. What is in the popular imagination of the spirit of resistance and revolution.

This topic deals with the presence of resistance literature in the Touat region during the French occupation of the Sahara, where the word accompanied the lead to express the rejection and resistance to the occupier despite the vast differences between the two parties, and the resistance literature represents historical signs, poetic poems, and popular proverbs, so how did the Touatians resist French colonialism literarily, artistically and aesthetically?

Keywords: Resistance literature; Touat region; desert; popular culture; committed poetry.

مقدمة:

عند احتلال الصحراء الجنوبية واجه المحتل الفرنسي في مطلع القرن العشرين مقاومة باسلة تصدّت لعرقلة التوسع الاستعماري بشكل تجلّت فيه مظاهر التحدي والرفض والتمرد والتضحية والكفاح، وواكبت هذه الملحمة البطولية ثورة أدبية، إبداعية، ثقافية، صنعتها أصوات ملتبهة، وعقول واعية، فذيّجت نصوصاً مقدودة من بحر الدم، وموزونة على إيقاع الرصاص والمدفع، وملحونة على معزوفة حمراء، رددتها جهات الوطن الأربع، وساجلتها جميع الشرائح الاجتماعية، وتناقلتها الأجيال كوصية لا تنسى، فسكبتها في قوالب فنية مختلفة الأجناس والأشكال، لكنها موحدة الموضوع والأغراض.

ومنطقة توات (تقع في الجنوب الغربي من صحراء الجزائر، هي الجزء الأكبر لما كان يعرف بولاية أدرار قبل التقسيم الجديد الذي أخرج منها ولاية تيميمون وولاية برج باجي مختار، ومنطقة توات هي حاضرة علمية تاريخية وكانت ممراً للقوافل التجارية زمن تجارة الملح والقطن، وهي تضم ثلاثة أقاليم رئيسية كتوات الوسطى، تيديكلت، تنجورارين. (ينظر: الصديق، 2003م، ص: 12) بأقاليمها الثلاثة - تيديكلت، قورارة، توات - لم تكن نشازاً عن باقي جهات الوطن في الاحتفاء بالثورة والمقاومة على امتداد الزمن، وعبرت عن تماسك الوطن ووحدته مصيره، وسجلت حضورها الإبداعي المحتفي بمشروع المقاومة والتحرير من الأعداء قديماً وحديثاً، وبمختلف ألوان الخطاب الأدبي، وشكل خطاب الأدب المقاوم عبر تاريخها الزاخر لونهاً من ألوانها التعبيرية والجمالية.

أولاً: الثورة والمقاومة في تاريخ توات لها جذور

إن البحث في الأدب المقاوم يدفعنا إلى القيام بعملية حفر في النسق المعرفي والثقافي الذي شكّل الجذور الأولى لبناء فكر المقاومة بالمنطقة؛ أي الكشف عن أنظمة وأصول البنية المعرفية بإزميل الإيكولوجي كما يرى ميشال فوكو، قصد ملامسة مكونات الخطاب وتواتراته عبر الزمن. وأدب المقاومة ليس لوناً جديداً في أدبيات التواتيين وتاريخهم الذي شهد حروباً ومقاومات، كما عرفت بعض المناطق فيها سخونة واحتكاكات بين الأهالي والغزاة عند وقع غزو، إضافة إلى تفاعل أبناء المنطقة مع الأحداث العالمية الكبيرة كحملة نابليون بونابرت على مصر، وحملات الدول الاستعمارية على الدول العربية والإسلامية، ولاسيما الحملة الإسبانية على الغرب

الوهراني، التي دعت أحد التواتيين، وهو الشيخ سيدي أحمد التواتي من القرن التاسع الهجري، إلى أن يستصرخ أهل وهران في الدفاع عن المدينة وحماية المرسى من التحرش الإسباني. وفي ذات القرن؛ أي التاسع الهجري، نجد شخصية مركزية بالغة الأهمية، من حيث الشخصية الكاريزمية ذات البعد الأسطوري، ويتعلق الأمر بالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ)، بوصفه ثائراً وفاقها ومجاهداً، قاد معركة ضد يهود توات، وكان له إنتاج أدبي ثوري من خلال أشعاره وخطبه ورسائله الموجهة لخاصة المسلمين وعامتهم.

وبما أن خبول بوعمامة وقعت سناكبها على تخوم توات، وكان لحضوره في المخيال الشعبي بعداً روحياً وأسطورياً، فإن أهالي توات تأسّطت في عقولهم صورته الكارزمية وملحمته البطولية، كما نقشّت في سويداء قلوبهم ملاحم المقاومة الشعبية التي تشكّلت عبر مخيال صنعته المعارك، ورسخته جدلية الأنا والآخر التي ترسّبت في الذاكرة بوعي أو عدمه، وأملتها تمثلات وتعاليم الزوايا والطرق الصوفية ورجالها بأقوالهم وأفعالهم وأعمالهم الرافضة لسلوك الظالم المستبد.

ثانياً: المقاومة الشعبية عند احتلال الصحراء

لقد أغرت الصحراء بجمالها وثرواتها الأوربيين فتسابقوا لاكتشاف مجاهلها ولاسيما الفرنسيين منهم، واتضح ذلك في تمكنهم من إحكام السيطرة على شمال الجزائر، ثم طمعوا في بسط سلطانهم على الصحراء الكبرى، غير أن المقاومة الشعبية أحبطت محاولاتهم في عديد المرات، وكانت رغبتهم تزداد كلما عرفوا المؤهلات الاقتصادية والجغرافية من خلال الاستناد للدراسات المكتشفة برصد علمي للأطلس الجغرافي والطبيعة البشرية لسكانها.

وأصبحت توات - كجزء لا يتجزأ من الصحراء - إقليماً مستهدفاً بوصفها طريقاً محورياً للقوافل التجارية في الصحراء الجنوبية، ومحطة غنية بالثروات الباطنية والمعدنية مما يجعلها قطبا تجارياً للنشاط الاقتصادي والثقافي والسياسي والأمني. (الصافي، 2011 / 2012م، ص: 25-26).

في النصف الثاني من القرن 19م حاول الفرنسيون تكثيف أنشطتهم التوسعية كهروب من ضغط المقاومة في الشمال وسعياً لتكثيف الضغط على المجاهدين الذين تحصّنوا بالوحدات الجنوبية أحد معارقلهم واستراحاتهم، ومقر للفرار والاختباء البعيد عن عيون الاحتلال، ولأجل ذلك عزم الفرنسيون على تسريع وتيرة احتلال الصحراء، خاصة بعد تداعيات حركة الشريف محمد بن عبد

الله، وثورة أولاد سيد الشيخ، بالجنوب الوهراني، وما قام به الثائر بوشوشة وفي ذلك تأكيد للرأي القائل: (مثلما كانت الجبال منذ القديم معقلا للمجاهدين فإن الصحراء الجزائرية هي حليفة الثوار والمقاومين للاحتلال الفرنسي، إن مقاومة الجنوب كانت رائعة مثل الشمال مبيّنة وحدة البلاد). (الصافي، 2011/ 2012م، ص: 27).

كثّف المستعمر الفرنسي من أبحاثه ودراساته للجنوب، وأرسل لهذه المهمة أحد عيونه، هو المسيو (فلاموند)، وقدمت البعثة خدمة جليلة للتوسع في منطقة تيدكلت، وقد انطلقت الحملة ذات خريف من سنة 1899م انطلاقا من مدينة ورقلة متخفية بطابعها البحثي، الذي سرعان ما تكشف نيتة التوسعية الإمبريالية، إذ زودت البعثة المحتل بالمعلومات البشرية والجغرافيا الطبيعية لتكون مقدمة لحملة عسكرية ملعونة.

تمركزت فرنسا بعد حشدتها لقواتها بمنطقة حساسة تجعلها تراقب الوضع بمنطقة الصحراء، حيث أقامت مركزا بمنطقة الشبابة، وهي موقع انتصب بين مديني المنيعه وعين صالح لتبسط سلطتها به منذ سنة 1883م، وفيه طريق يربط عين صالح والمنيعه وإينغر و ورقلة وتيميمون ومناطق من توات، واستولت على هذا الطريق لمدة أكثر من 16 سنة، وأنشأت عدة أبراج للمراقبة والحراسة وجمع المعلومات. (بلعام، 2011م، ص: 6).

ضمن إطار هذه الحملة انطلقت بعثة فرنسية في شهر نوفمبر 1899م في مهمة تجسسية بقيادة فلاموند، وكانت مدعومة بقوة عسكرية يقودها النقيب (بين) حيث وصلت إقسطن بعين صالح يوم 27 ديسمبر 1899م، فقرر السكان المحليون مواجهة هذه البعثة، ووقعت معركة حاسمة بين الطرفين يوم 29 ديسمبر 1899م في مكان يسمى الفقيقية، ومنها جاء اسم المعركة الخالدة التي كشفت عن جذوة الرفض للمستعمر ومشروعه، وأبلى السكان المحليون بلاء حسنا رغم عدم تكافؤ الفرص، واستنجد العدو بالمرتزقة، وأسفرت هذه المعركة عن ضحايا منهم 56 شهيدا، وأزيد من 100 جريح، و49 أسيرا. (عبد المجيد، دت، صفحات 34- 44).

وبحسب الثوار والمجاهدين استجاب أهل أولف وإينغر وتوات لصيحات النجدة التي انبعثت من أهل عين صالح، وتجمعوا في فيالق، وجمعوا السلاح والمال وما استطاعوا من آلات حربية تقليدية وبسيطة، للدفاع عن إخوانهم، وحماية لمنطقتهم من الغزاة، وتولى الشريف مولاي عبد الله

الرقاني أمر قيادة المعركة التي اندلعت بين طرفين غير متكافئين في العدة والعتاد، بمنطقة تسمى الدغامشة، كان ذلك يوم 5 يناير 1900م الموافق ليوم الجمعة الثالث من رمضان لعام 1317هـ (عبد المجيد، دت، ص 44).

تمركز المجاهدون بمنطقة البركة قرب عين صالح، بتعداد لم يتجاوز 1400 مجاهد، وبعد ليلة تشاورية لم تسلم من عيون الجواسيس والعملاء تحت أجنحة الظلام والذين بلغوا خطط المجاهدين للعدو، وكانوا قد اتفقوا على مجابته كفاحا بدلا من الغارة عليه ليلا، ونظرا لتفوق العدو في العدة، فقد أطلق عليهم النار لوجودهم بمنطقة مكشوفة لا ترس بها ولا مكان للاختباء؛، ولذلك انهزموا. قدّرت خسائر المعركة حسب بعض المراجع الفرنسية ب 150 شهيدا و200 جريح، ومن ضمن أسباب الهزيمة انفجار برميل البارود المادة الوحيدة المتفجرة التي يمتلكها الثوار، وكان اشتعاله منعرجا حاسما في هذه المعركة، بحيث لم تعد بنادق الشفرة تؤدي أي دور بعد تفجر البارود. (مولاي التهامي، 2006م، صفحة 118).

وكان من بين ضحايا هذه المعركة القائد الثائر مولاي عبد الله الرقاني، بينما تكتمت فرنسا على خسائرها، وانتهت الواقعة ببسط المستعمر لسيطرته حول منطقة عين صالح، وقطع أي جذوة أمل لاسترجاعها من قبل الثوار، مما جعلها تفكر في الاستيلاء على تيدكلت وتوات وبقية المناطق الجنوبية، واعتقدت فرنسا أن الحماسة والشعلة الجهادية قد خبت، وأنها استطاعت زرع الرعب في أهالي الصحراء، ظنا منها أن أحلامها التوسعية ستتم دون مقاومة، واستهانت بأمر الانتفاضة الجنوبية بسبب الجغرافيا التي تعطي للعدو نقاط التفوق والاستحواذ على الأرض استسلاما، وهو الذي كان عكسه في معركة إينغر.

لمدينة إينغر أهمية كبيرة بسبب موقعها الجيوستراتيجي في احتلال مناطق قورارة وتيدكلت وتوات التي باتت تحاصرها من جهة إقلي من في الشمال الغربي وعين صالح وإينغر من جهة الشرق. (الصافي، 2011/2012م، صفحة 42).

بعدما تبلورت داخل المجتمع الصحراوي فكرة أن العدو غاز، بمواصفات المستبد والظالم والكافر المنبوذ والمخالف في العقيدة، حيث تنادى أهالي المناطق للدفاع عن حياض مساكنهم والذود ببسالة عن الديار المحروسة. (اللجنة البلدية للأبحاث التاريخية، جمعية القصبة إينغر عين صالح، دت، صفحة 8).

بعد انتكاسة المجاهدين في معركة الدغامشة، لم يكن ذلك مدعاة للتولي والاستسلام من لدن المجاهدين، إنما شكلوا جيشا مقاوما، وعليه دور الثأر لكرامة القتلى والجرحى، وتولى رجل يسمى الحاج محمد عزى إمرته، ليلتحق بالجيش أهل تيديكلت قاطبة، واستمرت المواجهة لمدة شهر كامل، وظّف فيها العدو كل أساليب المكر والخداع والمراوغات، إلا أن فطنة الأهالي سحبت منهم النصر وألحقت بهم خسائر جسيمة.

ولما لجأ المجاهدون إلى القلاع ليتحصنوا بها، وعجز العدو عن اقتحامها استنجدوا بحامية المنيعة التي زودتهم بالأسلحة الثقيلة، وشارك العقيد دلو (DELEU) بعينه في هذه المعركة، واستخدمت فيها المدفعية لهدم الحصون والقلاع، وبعد دك الحصون بها، تمكن العدو من السيطرة على مدينة إينغر في 19 مارس 1900م. وسط مقاومة وبسالة من المجاهدين خلّفت العديد من الخسائر في الأرواح والعتاد في صفوف العدو. (عبد المجيد، دت، صفحة 45).

وسجلت الذاكرة الشعبية لمنطقة إينغر بسالة وجسارة المجاهدين وبطولة قائد المعركة عزى الحاج محمد، حيث أنه عندما طلب منه القائد الفرنسي الاستسلام وتسليم مفاتيح البلدة للمحتل قال مقولته الخالدة "والله لو ماتوا أكبارها وطيحوا أسوارها وتخلط أنساها مع صغارها لا نستسلم" (الصافي، 2011/ 2012م، صفحة: 43).

ومن المعارك الكبرى التي خاضها أهل توات معركة المطارفة التي شارك فيها أهل منطقة المطارفة والسهلة وقوافل البربر الذين أدّوا دورا كبيرا في هذه المعركة، حيث أنهم وفدوا على قوارة للفتك بفرنسا والاعتنام منها، فوجدوها في المطارفة، وكان العدو حسبهم للوهلة الأولى مددا للانتصار في هذه المعركة، فلما حددوا هويتهم حاصروهم ومنعوا عنهم الماء، فأصاب البربر عطشا كبيرا، خصوصا أن الفصل صيف، وأنهم تحت أشعة الشمس، ولما كانت الأزمة تولد الهمة، فقد استطاعت فرقة من البربر الالتفاف حول المستعمر من جهة قرية أولاد راشد، متسترين بأسوار القرية وبساتينها، ودارت معركة حامية الوطيس بين البربر والجيش الفرنسي، واستطاع المتسللون إخبار أهل المطارفة بالحدث، فتجمعوا في كتائب برجالهم ونسائهم، وحاصروا المستعمر من جهتين، واستطاعوا فك الحصار عن المدينة المضروب عليها من قبل الجيش الفرنسي، الذي اضطر

للانسحاب، بسبب تكاتف أهالي المطارفة مع البربر، وفرّ هارباً يجر أذيال الهزيمة، مخلفاً وراءه قتلى وجرحى وإبل معطلة مجروحة، كانت غنيمة للمجاهدين.

غير أن فرنسا لا تنس جراحها وانحزاماتها إذ أعادت الكرة ثانية، واستخدمت كعادتھا المدفعية الثقيلة، واستطاعت أن تلحق بعض الأضرار ببلدة المطارفة، مما جعل المجاهدين يخرجون العجزة وضعاف الناس من النساء والأطفال والمعاقين للبساتين، واستمر القتال في حرب غير متكافئة، ولم يبق سوى الحيلة التي عمد إليها الثوار، فتسللوا عبر الأودية لواء، حتى حدوا قائد الجيش الفرنسي، واردوه قتيلاً، حينها فر بقية الجنود بجلودهم قاصدين مدينة تميمون عبر دلدول. (بلعالم، 2011م، صفحة 26).

ولما فشلت فرنسا في محاولات السيطرة على منطقة المطارفة لجأت للخداع والمكر والمسالمة، وعقدت صلحاً مع الأهالي ممثلين في القيادة الشعبية، وتضمنت المعاهدة أربعة شروط (بلعالم، 2011م، صفحة 29):

- ألا تتدخل فرنسا في أمر الدين الإسلامي.
 - عدم فرض ضرائب أو أتاوات على الأهالي.
 - عدم تسخير المجتمع التواتي من طرف فرنسا.
 - انتفاء العمل المجاني ولو كان صغيراً مع فرنسا.
- وبعد المهادنة بأربعة أشهر نقضت فرنسا كعادتھا العهد، واستولت بالغدر والقوة على كل مناطق توات، وبسطت سيطرتها على كامل ترابھا، وأنشأوا بها مراكز أمنية، وعينوا بعض التواتيين العملاء في مكاتبهم.

ثالثاً: أصداء المقاومة على ألسنة الشعراء

ولكن ظل الرفض الشعبي لأعمال المستعمر وعملائهم يسري في الوجدان بسبب الجرائم الاستعمارية والظلم والتعدي على الأوطان والإنسان، وقد صوّر الشاعر الشيخ سيد البكري بن عبد الرحمن بن الطيب التلاني (هو من تلان لكنه نشأ عند أخواله البكرين، وولد بالزاوية البكرية عام 1260هـ، شاعر له ديوان، وصاحب قصيدة مدح الشاي، توفي أوائل جمادى الأولى عام 1339هـ) (الصديق، 2003م، صفحات: 108-110) عظمة أهل المطارفة والبرابرة الذين استبسلوا في مقاومة المستعمر بقوله:

لله در عصابة باعوا النفوس من الإله بجنة الرضوان

أصداء الثورة والمقاومة في المخيال الشعبي التواتي عند احتلال الصحراء

أهل المطارفة والسواهل والبرا بر قد أتوا الأبطال والشجعان
فتقدموا لما تلكأ غيرهم لجهاد عباد الصليب ألوان

إن المقاومة الشعبية التي أسفرت عن معارك الفقيقية والدغامشة وإينغر والمطارفة وحاسي صاكة قد ولدت رفضا شعبيا للمحتل دخل بين اللحم والدم، تغتّى به المخيال الشعبي في الأهازيج والأغاني والرقص الشعبي كالصيغة التي رقص بها أهل البارود التي تشيد بمشرح الحركة الوطنية الباقي بوعلام على حساب (الخلادي) المدعوم من طرف المستعمر .

تلك هي نتيجة جرائم المستعمر في منطقة توات، فقد ولدت رفضا اختلج في النفوس، وتعمّق في الوجدان، ليصوّر المخيال فرنسا برؤية الطاغية والجرم والمخالف في الهوية الفردية والمجتمعية، وقد صوّر العديد من الشعراء الفصحاء تلك الحالة، وعبروا عنها بحالة إبداعية، منهم الشيخ حمزة بن مالك القبلاوي(ولد بساهل عام 1259هـ، درس على يد والده أحمد بن مالك، وشيخه سيدي المختار بن سيد أحمد العالم، تضرع في الفقه والحديث والحساب والفرائض والعروض، وأنتج العديد من القصائد الشعرية، ينظر: (حاج أحمد الصديق، 2003م، ص136) الذي حرّض أهل إينغر عندما هزموا فرنسا في المحاولات الأولى، وصدوا هجماتها ورفضوا الاستسلام لها، فقال: (مولاي النهامي، 2006م، صفحة 123) :

يا أهل إينغر يا أنصار دين الهدى حزتم جميعا أعز الفخار والسوددا
مرابطكم وعربكم بأسرهم كذا مواليكم يا ناصرين الهدى

إلى أن يقول:

دفعتم بمدافع مؤيدة رجيّعها يحتف العدا إذا غردا
بيضتم وجه أهل الدين بعد نضو به كما بكم اسودت وجوه العدا

وبنفس الروح لجأ مواطنه الشيخ الحاج محمد عبد الرحمن بن محمد السكوتي (ولد بساهل عام 1285هـ درس على الشيخ حمزة القبلاوي، وأخذ عنه علومه، له تأليف في المنطق والفرائض والحساب، وقصائد شعرية، توفي بأرض الحجاز عام 1333هـ، (الصديق، 2003م، صفحة: 137)

للتعبير عما في صدور الناس من فرح بالثوار وحقد على المستعمر الغاشم فقال ممجدا أهل إينغر في قصيدة طويلة منها (مولاي النهامي، 2006م، صفحات: 124-125) و (بلعالم، 2011م، صفحة 145):

قل للكوافر إن نظمتم حيلة فأهل إينغر قبل نظمك شعروا
وإن جمعتم عليهم جنود الردى فجمع ذا اللف بالتفريق ينتشر

هام العدى نثروا لنظم شمل الهدى لله ما نظموا في الله ما نثروا
فأصبح الدين في عز وفي صعد والكفر في درك الإذلال ينحدر

إن متوالية الكفر، وهو الآخر المختلف عن الأنا، هي التي ترسخت في الذهنية التواتية خاصة، والجزائرية عامة، وصنعت الفارق، وأبقت على جذور الرفض والتمرد على المستعمر وفق انعكاسات المخيال الشعبي، الذي تأسست فيه عبر مراحل قيم الصمود و الزود عن الأرض والعرض.

لقد تصدى أهل توات للمحتل الفرنسي، ودافعوا عن حياض واحتهم منطقة منطقة، وقصرا قصرا، وشبرا شبرا، ولم تدخل فرنسا أرضهم إلا على الجماجم والدماء والأشلاء وبعد معارك طاحنة خلّفت الخراب والدمار ومئات الشهداء وعشرات الجرحى.

رابعا: أصداء الثورية في الأدب الشعبي التواتي

التغني بالشعر في الحروب يكاد يكون شعيرة من شعائر العربي، أو هو القربان الذي يقّده لنيرانها المتأججة، ليفوز بالنصر، والذي كان قد قدّمه منذ العصور القديمة، فقد روى المؤرخ سيوزوم أنّ العرب عندما انتصروا على الرومان في القرن الرابع الميلادي، احتفلوا بهذا الانتصار، ومالوا به سماء بواديهم شعرا وغناء. (حسين، 1400هـ/ 1980م، صفحة 87).

لقد اهتم الشعر الشعبي بثورات الجزائريين منذ الثورات الشعبية حتى ثورة التحرير المباركة، وصف الثوار وكفاحهم، وفضح المستعمر وأعماله، إنّ هذا الشعر هو من كل فئات المجتمع التي لم تكتف بما يجري في الداخل بل واكبت الثورة... فالشعر يصور لنا الثورة الجزائرية بأتم معنى التصوير، و يقّدها لنا ليس على شكل أحداث فقط، بل قيما وأهدافا، وغايات أيضا. (دحو العربي، 2007م، صفحة: 17).

إن دواوين الشعر الشعبي الجزائري وقصائده دليل إدانة للمستعمر، ووثيقة شاهدة على جرائم فرنسا، وتدوين لبطولات وعظمة الشهداء والمجاهدين، وهو إدانة للاحتلال أبلغ من أي إدانة أخرى، لأنها إدانة بسطاء واعين لما يقولون، آمنين به، صادقين كل الصدق، فهم في مواقفهم هذه يصعدون من قناعة تامة، وعن تجربة كاملة، ومعايشة فعلية أوصلتهم إلى إنعاتها هجاء في نصوصهم بما هي عليه" (دحو العربي، 2007م، صفحة: 23).

والشعر الشعبي في إقليم توات لم يشذ عن تلك القاعدة، فقد انبرى الشعراء الشعبيون، لمهمة التدوين للمعارك في غياب الصورة الرقمية، فكانت الصورة الشعرية حاضرة لديهم، فالتقطوا اللحظة الملهمة، وخلّدوها إبداعا خالدا، ولئن غابت الفصحى في بعض مظاهر التعبير فقد حضرت العامة لرصد الفعل الثوري المقاوم للمجاهدين من جهة، وفضح جرائم المستعمر الغاشم من جهة أخرى.

وسنقف عند بعض الشعراء الذين رصدوا المقاومة في الجنوب وإقليم توات خاصة، وحضروا أو سمعوا بالبطولة فأذاعوها، و بالجرمة فأدانوها، وهم كثر نذكر منهم:

1) الشاعر المجاهد بوتقي عبد النبي: ولد سنة 1860م بضواحي المنيعة، شاعر موهوب جمع بين البداوة والحضارة، كان من رواد المقاومة الشعبية بالجنوب، حكم عليه بالإعدام بسبب قصائده الشعرية الساخرة من فرنسا، ونجا من مقصلة باتنة، سنة 1914م، صوّر معارك أينغر وحضرها، وفضح جرائم فرنسا، توفي سنة 1920م بعين صالح (الصافي، 2011/ 2012م، صفحة 46)، صوّر معركة أينغر الأولى ورفض الاستسلام للعدو فقال: (مولاي التهامي، 2006م، صفحة: 119).

ابعث بو شاطورة يدور التسيار واحلفنا بلا مان لا صارت منا
ولما اشتد القتال الدائر بين المجاهدين وجيش العدو، وتكبّد العدو خسائر جسيمة، واستمر القتال يومين قال: (مولاي التهامي، 2006م، صفحة 119).

اطلع فوق العرق واقدف النيران تسمع حس الزهير عند الحاننا
من نصف الليل إلى غد في نصف النهار صار القرطاس بينا عامل مزنا
وفي معركة أينغر الأخيرة التي استعمل فيها العدو سلاح المدفعية لإنهاء المعركة لصالحه يقول: (التهامي، 2006م، صفحة: 121).

فالعرق انصب مدافعو وقدت النار كسر الأسوار كاملة كيف أخرجنا
2) حمودة مبارك: هو مبارك بن قادي حمودة من مواليد 1905م بزواية حنون أولف، تعلّم في الكتاب منذ نعومة أظفاره، حتى حفظ القرآن الكريم، ثم انتقل للفنون الشعبية. (عبد المجيد، دت، صفحة: 140-141).

لما بدأت جيوش فرنسا تدخل أعماق القصور التواتية قال قصيدته التي يستنهض بها الناس للوقوف في وجوه الكفار ومطلعها:

باسم الله باش بديت مولانا هو الرحيم

إلى أن يقول :

نُهِفُوا قَوْمَ الْكُفَّارَةِ وَاَنْلُوحُوهُمْ فِي الْيَمْرِ
تَاكُلْهُمْ بِاللَّهِ غِبَارَةٌ حَرَمَةُ نَيْنَا الْمَخْتَارِ
وَلَمَّا فَجَّرَتْ فَرَنْسَا الْقَنْبِلَةَ النَّوِيَّةَ فِي رَقْثَانِ كَانَ شَاهِدًا عَلَى الْجَرِيعَةِ فَبَاحَ بِأَهَاتِهِ:
أَنَا يَا لِحَوَانِ نَنْظُمُ هَذَا الْقَوْلَ عَلَى ذَا الصَّحْرَا دَخَلْتَ غَبِيْنَةَ
دَخَلُوهَا كُفَّارَ مَا فِيهِمْ أَمَانٌ طَلَقُوا لَيْنَا قَنْبِلَةً فِيهَا شَيْنَةٌ
وَحَرَّضَ النَّاسَ لِيُثَوِّرُوا قَائِلًا:

فَيَقُوا يَا لِحَوَانِ وَتَجْمَعُوا فِي دَارِ شَوْفُوا نَاسَ خِيَارِ يَعُودُوا مِنَّا
طَلَبْنَا رَبِّي يَكْمُلُ هَذَا الْقَوْلَ عَلَى ذَا الْكَافِرِ طَرَدُوهُ عَلَيْنَا
لَوْ قَعَدَ فِي الصَّحْرَا حَرَامٌ عَلَيْهِ يَزُولُ وَلَوْ قَعَدَ فِيهَا يَفْسُدُهَا لَيْنَا

(3) معمري بحوص: هو معمري بحوص بن قدور بولحية، من مواليد 1925م بمدينة أولف، تعلّم في الكتاتيب، وخالط سكان البادية، واكتسب منهم الفحولة، وأصبح أحد أساطين الشعر الملحون في الجزائر، حيث فاز بالمرتبة الثانية في المهرجان الوطني للشعر الملحون سنة 1979م (عبد المجيد، دت، صفحة: 147).

من قصائده التي مجّد فيها الثورة وأدان الاستعمار قوله: (عبد المجيد، دت، صفحة 148)

يَا سَلْنِي عَلَى الْجَزَائِرِ فِيهَا صَارَ قَاسَاتٌ مَعَ فَرَنْسَا شُدَّ الْمَحَنَةُ
دَارَتِ الْأَيَّامُ وَقَامَتِ النَّاسُ الثَّوَارُ وَاتْتَصَرُّوا بِاللَّهِ وَفَضَّلَ وَحَدَّثَنَا
يَا نَوْفَمْبَرِ يَا طَبِيبَ جِرَاحِ الْعَارِ فَكَيْتِ الْأَرْضُ بَعْدَ اللَّيِّ كَانَتْ فِي هَانَةِ

هناك العديد من الشعراء الذين فضحوا جرائم المستعمر، وعدّدوا خصال المجاهدين والثوار، معدّدين مزايا وفضائل المقاومة لا يتّسع المقام لذكرهم كلهم، وهذا غيض من فيضهم الشعري، وثنتة من بوحهم الثوري والمقاوم.

خامسا: روح المقاومة في الأمثال الشعبية التواتية

لا يعنى الأدب الشعبي كثيرا بالفردى من الغناء والشعر والقول، إنما هم الجماعةى الذى تصدره الجماعة، وتعبر فى عن مشاعرهما وتحبى به احتفالاتهما.

لا يتعرض دارس للأدب الشعبى دون أن ببى أسفه بب فىة وأخرى لضباع نصوصه بسبب الشفوىة وعدم الاعتناء به، وعدم نسبته لقائل معين، مما بسهل تلفه ونسيانه، لذلك فإن الشعر وفنون الأدب الشعبى عامة قد فقدت فى نظر الرواة والأدباء والنقاد مزبة الفصاحة والأصالة، وبالتالى الضبباع وقلة العناية، (حسن، 1400هـ/ 1980م، صفحة: 97).

ومن ضمن عناصر الأدب الشعبى المشكّلة للمخيلة الاجتماعية، والجامعة لعصارة التمثلات والأمثال الشعببة. وهى حوصلة لتجارب الأمم والشعوب مع الحياة، وتستحضر مواردها ومضاربها عند الاستدلال الضرورى، والتبربر لسلوكات وتصرفات أفراد المجتمع فى مواقف معينة تثبر الانتباه. وتبرز الأمثال خفايا الذهنبات وبنبة التصورات الشعببة لكل شعب من الشعوب، وتؤدى دورا خطبرا فى رسم معالم التصور حول الأنا والآخر.

المثل الشعبى هو الكلام الشائع بب الناس، كثر التداول على الألسن، عامى اللغة، لا بتقيد بقواعد النحو العربى، وهو بتمبى بوصفه "وبز اللفظ، صائب المعنى، حسن التشببب" (ابن القيم الجوزبة، 1981م، صفحة: 22).

وفى القرآن الكريم ضرب الله الأمثال للناس لأجل فهم المعنى، وتقرب المراد وببصاله لذهن المتلقى. ولقد رست الأمثال بجلبة الأنا والآخر، وحملت فى طباقها مع الشعر مفهوم الرفض والتمرد وبذوة الشجاعة وروح المقاومة الثقافية، التى مثلت مع الكرم أنهما "صفتان اثنتان حرص العربى أن بنبعا بهما، ودار حولهما كل شعر مابح أو مفتخر عند العرب، من الباهلبة حتى العصر الحديث" (حسن، 1400هـ/ 1980م، صفحة: 77).

فى متون الخطاب اللهبى بإقليم توات أمثال شعببة تبسد الظواهر الاجتماعية، وتكشف طببة الذهنبة، وحبقة الشبببة، وهناك تشابه بب بعض الأمثال الشعببة، والأمثال العرببة الفصببة التى أضحت سائرة متداولة فى الخطاب البومى.

هذه طائفة من الأمثال الشعببة التى رصدها الدكتور عبد المجبى قبى فى كتابه (صفحات مشرقة من مببنة أولف العربة) (عبد المجبى، دب، الصفحات: 236 إلى 264)، انتخبنا منها ما

خزن روح المقاومة وأسهم في تأجيحها، أو ما يبرر السلوك الثوري أثناء الوجود الاستعماري وقد قسمناها إلى فكرتين اثنتين:

(1) الضعيف لن يبقى ضعيفا دائما وقد يغلب القوي: وهي ما بررت مقاومة المستعمر رغم تفوقه عسكريا وتقنيا ومن بين هذه الأمثال:

- حبة على حبة تعيش الدابة يدل على عدم استصغار العطايا بشرط دوامها.

- العود اللي تحقرو يطرف عينك.

- زوج تغلب سبع.

- ما كان نخلة ما هزتها الريح.

(2) الدعوة للوحدة والتكاتف داخل المجتمع ومقاومة الدخيل: وهي التي شكّلت اللحمة في مواجهة المحتل وعدم القبول به؛ وبالتالي مقاومته، ومن هذه الأمثال:

- القافلة قافلة وكلها عينو على بعيرو.

- جرح العيب ما يبرى.

- اسمع راي اللي يبيكيك وما تسمع راي اللي يضحكك.

- اللي يقلع النمر يدكو الشوك.

- النار البعيدة ما تدثي.

- دارك ستارة عارك.

- اللي ما يسمع كلام كبارو ياواش يصرى لو.

- وقت اللي تصايح تعرف اماليها.

خاتمة:

- للمقاومة بمنطقة توات بأقاليمها الثلاثة (توات، تيديكلت، قورارة) جذور تعود إلى علماء المنطقة والمشايع المبرزين الذين قادوا ثورات أو انتفاضات ضد الظلم والاستبداد، ورفضوا فكرة الرضوخ للأمر الواقع، وقرروا الدفاع عن الوطن وحياضه، وضرورة المواجهة وردّ الصائل مهما كان أمره.

أصداء الثورة والمقاومة في المخيال الشعبي التواتي عند احتلال الصحراء

- واجه أهل الصحراء خصوصا بمنطقة تيديكلت وثورارة المحتل الفرنسي، وقدموا تضحيات كبيرة لصدّه عن احتلالها، ورغم المفارقة في العدة والعتاد إلا أن قادة المقاومة أظهروا بسالة نادرة، ولم تستطع فرنسا فرض هيمنتها على الصحراء إلا على جثث المقاومين في معارك الدغامشة، والفقيفيرة، والمطارفة.

- استطاع الشعر بشقيه الفصيح والملحون أن يخلّد بطولات التواتيين في الدفاع عن أراضيهم، وأسهم في إذكاء الحماسة والتشجيع على الكفاح والمقاومة بالسيف والبارود لثني المحتل على تحقيق مآربه بالسرعة التي تصورها، ومن بين الشعراء الذين خلدوا المعارك والتضحيات نجد الشيخين حمزة بن مالك القبلاوي، وعبد الرحمن السكوتي، و الشاعر سيد البكري بن عبد الرحمن، و الشاعر الشعبي بوتقي عبد النبي.

- تبلور الرفض العام للمستعمر بمنطقة توات وتظهر في ملفوظات تغلغلت في الوجدان وظهرت في شكل أشعار وأغان وأمثال شعبية تكرّس الرفض التام للمستعمر بوصفه ظالما ومتعديا ومستغلا وهاتكا لحرمة الدين والعرض.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- الكتب

01- بلعالم باي، (2011م)، الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج2، ط1، الجزائر، دار المعرفة الدولية.

02- محمد بلغيت، إيقاعات شعبية عادات وتقاليد فلكلورية في الجنوب الغربي الجزائري، د. ط، 2003م، مديرية الثقافة لولاية أدرار.

03- دحو العربي، (2007م)، مقاربات في الشعر الشعبي العربي في الجزائر، الجزائر، موفم للنشر.

04- حاج أحمد الصديق، (2003م)، التاريخ الثقافي لإقليم توات، ط1، الجزائر، مديرية الثقافة لولاية أدرار.

05- ابن القيم الجوزية، (1981م)، الأمثال في القرآن الكريم، بيروت- لبنان، دار المعرفة.

- 06- اللجنة البلدية للأبحاث التاريخية، جمعية القصبة إنغر عين صالح، (د.ت)، المقاومة الشعبية والحركة الوطنية لمنطقة تيدكلت، (د.ط)، الجزائر.
- 07- نصار حسين، (1400هـ/1980م)، الشعر الشعبي، ط2، بيروت-لبنان، منشورات اقرأ.
- 08- قدي عبد المجيد، (د.ت)، صفحات مشرقة من مدينة أولف العريقة، (د.ط)، الجزائر، جامعة الجزائر.
- 09- غيتاوي مولاي التهامي، (2006م)، لفت الأنظار إلى ما وقع من النهب والتخريب والدمار بولاية أدرار إبان احتلال الاستعمار، الجزائر، منشورات ANEP.
- ب- الأطروحات والمذكرات**
- 01- ختير الصافي، (2012/2011م)، النضال السياسي والثوري في إقليم توات، إشراف بلقاسمي بوعلام، رسالة الماجستير، قسم، التاريخ، جامعة بشار، الجزائر.